مكة في وُجدان شعراء ماقبل الإسلام

د. الطيب علي الشريف

المبحث الأول: الموقع والتسمية:

مكة: اسم يطلق على بقعة ضيقة من أرض الحجاز، بشبه جزيرة العرب[1] عُرف أمرُها، وذاع صيتها، منذ قدم إليها سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وبنى بها البيت العتيق بأمر من الله جل جلاله[2]، وتُعد مكة أشهر مدن العالم كله.

يرتفع موقعها على سطح البحر بنحو (٣٣٠) متراً، وهي على عرض (٣١) درجة، و (٢٨) دقيقة، وطول (٤٠) درجة، و(٩) دقائق، وتمتد من الغرب إلى الشرق بمسافة نحو ثلاثة كيلومترات، طولاً، وما يقرب من نصف ذلك عرضاً، في واد ضيق ممتد من الشمال إلى الجنوب، منحصر بين سلسلتي جبال تكادان تتصلان

---

(١) الحجاز: هي المنطقة الواقعة شمال غرب شبه جزيرة العرب، الممتدة على شاطىء البحر الأحمر، وسميت حجازاً: لأنها تحجز بين تهامة ونجد، أما شبه جزيرة العرب: فهي منطقة متصلة بقارة آسيا من الشمال ويحدها من الشمال: مصر والشام والفرات، ومن الجنوب: البحر الهندي، ومن المغرب: البحر الأحمر، ومن الشمال الشرقي خليج فارس، وأهم أجزائها: تهامة، الحجاز، نجد، العروض، اليمن، ينظر: ياقوت بن عبدالله الحمَوي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، لا. ط. لا. ت. ٢:١٣٧ و ٢١٨ وما بعدها، ومحمد الطاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط: ١، ١٣٨٥هـ ١:٣٦.

(٢) كانت رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة، وبناؤه البيت، بعد طوفان نوح عليه السلام بحوالي (٤٠٠) سنة، وقيل غير ذلك، ينظر: التاريخ القويم: ٣: ٢٠ وما بعدها.

ببعضها من جهة الشرق والغرب والجنوب، أي على أبواب مكة الثلاثة: (أعلى الوادي وأسفله وكداء)، ولذا فإن القادم عليها لا يشاهد أبنيتها إلا وهو على أبوابها[1]، وكل سفوح هذه الجبال عامرة بالسكان، والبيوت مدرَّجة عليها إلى بطن الوادي، كما تشاهد على الحرم في الوقت الحاضر.

ولمكة أسماء كثيرة وردت في القرآن الكريم، وكتب التاريخ، بلغت في مجموعها أكثر من ثلاثين اسماً، اقتضتها ضرورة الأوصاف، والأحوال المختلفة للموقع، وقد ورد ذكرها بالتفصيل في بعض المصادر[2]، ولكن المشهور منها ما جاء به القرآن الكريم، إذ سماها: مكة، وبكة، وأم القرى، والبلد الأمين[3]، ووردت تعليلات كثيرة في سبب هذه التسميات، منها على سبيل المثال:

(١) ينظر: السابق: ٧:٢ وما بعدها، ومحمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط. ٣، ١٩٧١م، ٣٢٧:٩ وما بعدها.

(٢) ينظر: التاريخ القويم: ٢٨:١، ومعجم البلدان: ١٨١:٥ وما بعدها.

(٣) وردت باسم مكة في قوله تعالى: ﴿وهو الذي كفَّ أيديَهم عنكم وأيديَكم عنهم ببطن مكة﴾، (الفتح:٢٤)، ووردت باسم بكة في قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾، (آل عمران:٩٦)، ووردت باسم أم القرى في قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها﴾، (الشورى: ٧)، ووردت باسم البلد الأمين في قوله تعالى: ﴿وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾، (التين:٣).

أنها سميت مكة: لأنها تَمُكُّ الجبارين، والماردين، المعتدين عليها، أي: تدكُّهم، وتحطمهم، وقيل: سميت بذلك لازدحام الناس فيها، وقريب من هذا: تعليل اسم بكة، فهو من البَكِّ، أي: التهشيم، والتمزيق، والقهر، والإجهاد، وما جرى مجراها، أما أم القرى: فهي تحمل معاني: القيادة، والزعامة، والقداسة، وما شابهها من معاني التعظيم والإكبار، ذلك لأنها أعلى مرتبة من جميع القرى، وفي مقدمتها رفعة وشرفاً، ولا يخفى معنى البلد الأمين، ويكفي تفسيراً له: أن من دخله أَمِنَ مادام بداخله ولو كان مجرماً[1].

المبحث الثاني: مكانة مكة وشرفها:

لمكة مكانة روحية عالية لدى جميع العرب، والمسلمين، وغيرهم من الأمم، والملل الأخرى، مثل: الروم، والفرس، واليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئة، والجبارين، والمردة، والعصاة، والمجرمين، والصعاليك، ويلجأون إليها عند الحاجة والخوف، ويفدون عليها حجاجاً من كل بقاع الأرض، وفي القرآن الكريم، والآثار التاريخية دلائل لا تحصى على هذه المنزلة العظيمة، والشرف العالي لمكة المكرمة، ومن الأمثلة على ذلك:

ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرىٰ حَتّٰى يَبْعَثَ فِي أُمِّهٰا رَسُولاً﴾[2]، وأم القرى هي مكة المكرمة، ولا يخفى ما في ذلك من الشرف وعلو المنزلة، وقوله أيضاً: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَمَنْ حَوْلَهٰا﴾[3]، دليل على فضلها على سائر البلاد، إذ بدأ بها في الذكر في الحالتين معاً: الرحمة، والإنذار.

ومما جاء في المصادر التاريخية من أسباب تسمية زمزم: أن الأعاجم من يهود ومجوس وصابئة، وغيرهم، كانوا يحجون البيت ويزمزمون على بئر الماء، وأن

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط. ١، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ٦:١٠، ومحمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الشام للتراث، بيروت، لبنان، لا.ط .لا.ت: ٢٠-١١٣.

(٢) القصص: ٥٩.

(٣) الأنعام: ٩٢.

سابور الملك لما حج زمزم فيها، والزمزمة: كلام الأعاجم وقراءتهم في صلاتهم، ودعاؤهم على طعامهم، وتذكر المصادر أيضاً: أن الفرس تعتقد أنها من ولد إبراهيم الخليل ﷺ، وقد كانت أسلافهم تقصد البيت الحرام، وتطوف به، تمسكاً بشعائر جدهم، وهديه، وحفاظاً على أنسابهم، وكان آخر من حج منهم الملك: ساسان بن بابك، وكان إذا أتى البيت طاف به، وزمزم على هذه البئر، وفي ذلك يقول شاعرهم:

زَمْزَمَت الفرسُ على زمزم ... وذلك في سالفها الأقدم(1)

لمكة مكانة روحية عالية لدى جميع العرب، والمسلمين، وغيرهم من الأمم، والملل الأخرى، مثل: الروم، والفرس، واليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئة، والجبارين، والمردة، والعصاة، والمجرمين، والصعاليك، ويلجأون إليها عند الحاجة والخوف، ويفدون عليها حجاجاً من كل بقاع الأرض، وفي القرآن الكريم، والآثار التاريخية دلائل لا تحصى على هذه المنزلة العظيمة، والشرف العالي لمكة المكرمة

وافتخر بذلك أحد شعراء الفرس، فقال:

ومازلنا نحج البيت قِدْما ... ونُلْقي بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى ... أتى البيت العتيق بأصيْدَينا
وطاف به وزمزم عند بئر ... لإسماعيل تُرْوِي الشاربينا(2)

ومهما قيل في هذا الشعر وصحته، فإنه يحمل في طياته معاني التعظيم والإكبار لمكة والبيت الحرام، وكافة المقدسات التابعة لها.

(1) ينظر: معجم البلدان: ٣:١٤٨.

(2) المصدر السابق.

ومن هذا القبيل: ما جاء في الشعر الجاهلي من مثل قول: سُبَيْعَة بنت الأحَبِّ، من قيس عيلان، توصي ابنها بتعظيم مكة، وعدم البغي فيها، لأن عاقبته وخيمة، وذلك من أبيات طويلة كلها تعبير عن تلك المكانة العالية لمكة في قلوب العرب، منها قولها:

أَبُنَيَّ لا يَظلِم بمكة ... لا الصغير والكبير
واحفظ محارمها بُنَيَّ ... ولا يَغُرَّنْك الغرور
أَبُنَيَّ من يَظلِم بمكة ... يلق أطراف الشرور(١)

وقول الشاعر ابن الأسْلَت:

فقوموا فَصلُّوا ربَّكُمْ وتمسَّحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخَاشِب(٢)

وورد في الآثار التاريخية: أنه وُجد مكتوب على حجر في ربوع مكة: «أنا الله ذو بكة الحرام، وضعتُها يوم وضعتُ الشمسَ والقمرَ، وخففتها بسبعة أملاك حُنَفاء، لا تزول حتى تزول أخْشَبَاها، مبارك لأهلها في اللحم والماء»، وُجد في بعض الزبور: «أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين، فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاث طريق: أعلى الوادي، وأسفله، وكداء، وباركت لأهلها في اللحم والماء»(٣).

ومنها: أنه يوجد بمكةالبيت الحرام، ومن دخله كان آمناً، ومن أحدث في غيره من البلدان حدثاً، ثم لجأ إليه، فهو آمن إذا دخله، فإذا خرج منه أقيمت عليه الحدود، ومن فضلها وشرفها: أن أهلها على مدى الدهور والأزمان آمنون،

---

(١) ينظر: عبدالملك بن هشام الحِمْيَري، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مكتبة الباب الحلبي، القاهرة، ط. ٢، ١٩٥٥م، ١: ٢٥-٢٦.

(٢) السابق: ١: ٥٩، والأخاشب: جبال مكة، ومنها التعبير بأخْشَبَا مكة، أي جبلاها.

(٣) معجم البلدان ٥: ١٨٣.

يغزون الناس ولا يُغزون، ويَسبون من البلدان الأخرى ولا يُسبون، وقد ثبت أنه لم تُسب قرشية قط، كما ثبت أن مكة لم تَدِن لدين الملوك، ولم يُؤد أهلها الجزية، ولم يملكها ملك قط من خارجها، بل إن الملوك، والجبابرة، يحجون إليها، ويعظمونها، كملوك: حِمْيَر، وغسَّان، ولَخم، إذ يخضعون، ويَذلون عند قدومهم لمكة، فيدينون لقريش، ويرون تعظيمهم، والاقتداء بآثارهم فرضاً واجباً، وشرفاً كبيراً.

وقد أشاد الشعراء القدامى بهذه المكانة العظيمة، وذلك الشرف الرفيع، كقول أحدهم:

أبْــوا ديِـن المـلوك فـهم لَـقَاح ... إذا هِـــــــيجُوا إلي أجـــــابوا

وقول آخر:

ولقــد غــزاهــا تُبَّع ... فكَسَــا بَـنيَّتَها الحـبير
وأذَلَّ ربـــــي مـــلكه ... فيها فَأوْفَى بـالنذور[1]

وبلغ من تعظيم العرب لمكة قبل الإسلام: أن الرجل منهم كان يحج البيت ويعتمر، ويطوف، فإذا أراد الانصراف عنها إلى بلده، أخذ حجراً من حجارة الحرم، فنحته على صورة صنم من أصنام البيت، فيحتفي به في طريقه، ثم ينصبه في أحسن بقعة في بيته، ويجعله قِبلة له ولأسرته، يطوفون حوله، ويتمسحون به، ويصلون له، تشبيهاً له بأصنام الكعبة، وبمرور الزمن اعتادوا ذلك وفشا فيهم، بل صاروا يأخذون معهم حجارة البيت دون نحت، يعبدونها ويقدسونها، ثم فشت فيهم الأصنام، وتعددت وتنوعت منذ أن أحضر عمرو بن لُحَى الصنم (هُبَل) من العماليق بأرض الشام[2].

وقد كثر تناول الشعراء لظاهرة الأصنام هذه بين مادح وقادح.

---

(١) السيرة: ١:٢٦: والبَنِيَّة: الكعبة، وقيل مكة، والحَبير: نوع من البرود اليمنية الموشاة.

(٢) ينظر السابق: ١:٧٧، والتاريخ القويم: ٢:٢١.

حيث هجا شاعر من بني ملْكان للصنم (سعد)، ورجمه بالحجارة، وكان أن أوقف إبله عليه يتبرك به، فنفرت منه في البراري، فخرج في طلبها حتى جمعها، فلما تجمعت له بعد تعبت، لعن ذلك الصنم، وقال في ذمه:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعدٌ فلا نحن من سعد
وهل سعد إلّا صخرة بِتَنُوفَة ... من الأرض لا تدعو لغيٍّ ولا رُشْد(١)

ومن تعظيم العرب لمكة: أنهم كانوا يتسابقون لكسوتها، ويتفاخرون بذلك، وتذكر المصادر أن تبع الأصغر(٢) أول من كسا البيت، وأطعم الناس في الجاهلية، على الراجح(٣)، وهو القائل مفتخراً:

وكسَوْا البيتَ الذي حرَّم الله ... مِلاءً مُعَضَّداً وبرودا(٤)
وأقمنا به من الشهر شهراً ... وجعلنا لبابه إقْليدا(٥)
وخرجنا منه نَؤُمّ سُهَيلاً ... قد رفعنا لواءنا معقودا(٦)

وتطاول شاعر من العرب اسمه: أبو حبيب، على أبي جهل، وتناول قريشاً بالهجاء، فردَّ عليه الزَّبْرقان بن بدر بقوله:

أتَدْرِي من هجوتَ أبا حبيب ... سليل خَضَارِمة سكنوا البطاحا(٧)

---

(١) السيرة ١: ٨٣.

(٢) تُبَّع الأصغر: هو تبع بن حسان بن تبع بن كليكرب بن تبع بن الأقرن، ينظر، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، المعارف، تحقيق: د. ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط. ٢، لا. ت.: ٦٣٤، وقيل: إن أول من كسا البيت: إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقيل: عدنان بن أُدَد، ينظر: التاريخ القويم: ٤:١٨٦.

(٣) ينظر: السيرة: ١: ٢٤-٢٥.

(٤) الملاء: ثياب مُحبَّرة من عصب، ومُعَضَّد: مشدود محكم، والبرود، ثياب يمنية، ينظر التاريخ القويم: ٤:١٨٦.

(٥) إقْليد: مفتاح، أي جعلنا للكعبة مفتاحاً، عن السابق.

(٦) ينظر: معجم البلدان ٤: ٤٦٦-٢٦٧، والتاريخ القويم ٤:١٨٦، والمعارف: ٦٣٥، وسهيل: نجم معروف في السماء.

(٧) الخُضَارِم: السَّيِّد، الجواد، المشهور، والجمع: خَضَارم، ينظر: مجمع اللغة العربية، القاهرة، المعجم الوسيط، إشراف: أحمد حسن الزيات وآخرين، بدون معلومات نشر، مادة: (خَضْرَمَ).

أزَاد الركب تـــذكر أم هشـــاما وبـــيتَ الله والبـــلدَ اللَّـقَاحا[1]

فالزبرقان يُبدي تعجبه من جرأة الشاعر على هجاء قريش، على الرغم من هذه المكانة العالية التي ينعمون بها، ووجود أمثال هؤلاء الكرماء الشجعان بينهم.

المبحث الثالث: صفة مكة القديمة:

تقع مكة «في واد تحيط به الجبال، وتمتد سيولها فيه، وإذا عصفت الرياح في مرتفعات الجبال اندفعت إلى بطن الوادي فيما يشبه الدوَّامات... وجوّها حار جاف، تختلف حرارته بين (١٨) درجة في شهور الشتاء، و (٣٠) درجة في شهور الصيف»[2]، ومكة القديمة عموماً: قليلة الماء، قليلة الأشجار المثمرة، وعمرانها في عهد جُرهم وقَطُورة[3] لم يزد على مضارب من الشعر، كانت تتلاصق أحياناً، وتتباعد أحياناً أخرى في سفوح الوادي، وفي عهد قريش صارت تختفي مضارب الشعر، وتحل محلها البيوت المرصوصة بالحجارة، أو المبنية بالطين والحجارة، حول المسجد، وعلى جوانب الوادي، وأول من بنى بيتاً بالحجارة بمكة: سعد بن عمرو الجهمي، وقد قال فيه شاعرهم:

وأول مـــن بَـوَّأ بـمكة بـيته وسَوَّر فيها مسكـناً بأثـافي[4]

وكانت بيوتهم في أول أمرها بدون أبواب، وأول من بوَّب بيته في مكة: حاطب بن أبي بلتعة، وكانت الأبواب مقصورة على بعض الغرف التي بها أشياؤهم الثمينة، أما المدخل والردهات فهي مفتوحة على استراحات كانوا يلحقونها ببيوتهم لُنُزل الحجاج والمعتمرين، وعلى هذا النحو نشط العمران في عهد

(١) معجم البلدان: ٥:١٨٤.

(٢) ينظر: التاريخ القويم: ١:٣٣.

(٣) جُرْهم وقَطُورة: قبيلتان، أبناء عمومة، يرجعون في نسبهم إلى أرفخشد بن سام بن نوح، سكنوا اليمن، ثم رحلوا إلى مكة واستقروا بها، ينظر: المعارف: ٢٧.

(٤) التاريخ القويم: ٢:٤٠.

القرشيين، فقد ورد أن قُصي بن كِلاب خط للكعبة ساحة تكفي للطواف، وازدحام الحجاج، وأباح البناء خارج ذلك من الجهات الأربع، فتكاثر العَمار حول الكعبة، وكانوا قبل ذلك يتحاشون السكن بقربها، والمبيت بجانبها[1].

ومن أشهر المتنزهات المكية في العصر الجاهلي: متنزه اللِّيط أسفل مكة، يأوي إليه المكيون من كل الأحياء القريبة والبعيدة، وكانت به حديقة جميلة يجلسون حولها في العشي، يلبسون أنواع الثياب الملونة، الزاهية، يعبق أريجهم على مسافات يعطر الجو، ويجدون في ذلك المتنزه راحتهم، وسعادتهم، ومتنفسهم، يقول شاعرهم الحارث بن خالد:

من ذا يسأل عنا أين منزلنا فالأقحُوانة منا منزِل قَمِن
إذ نلبس العيش صفواً ما يكدره طعنُ الوشاة ولا يَنْبُو بنا الزمن[2]

ومن متنزهاتهم أيضاً: شِعب خُمْ، وهو في أسفل الوادي، وكانت به عدة بساتين تتصل باللِّيط، كما كانت بساتين الحمام له متنزهاً، وهي بأعلى الوادي،

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق: ٢:٤٣، والأقحوانة: بستان جميل باللِّيط.

وفيها زروع ونخيل، بالإضافة إلى بساتين أخرى كثيرة على شواطىء الوادي، تمتد إلى مِنى، مثل: بساتين وادي طُوى، والحجون، وسواها.

وكانت مكة ذات مركز تجاري استراتيجي هام جداً، بحكم موقعها الرابط بين دول الشمال و دول الجنوب، فكانت أسواقها مزدحمة طول العام بالتجار، صاعدين إلى الشام شمالاً، أو هابطين إلى اليمن جنوباً، وكان القرشيون أسياداً في هذه الأسواق التجارية، فمهروا في التجارة، وأتقنوا فنونها، فاكتسبوا خبرة واسعة بمعاملة الناس، وكيفية إرضائهم، فتضخمت رؤوس أموالهم، وبلغت قوافلهم التجارية بالألف بعير أو يزيد، في رحلتي: الشتاء والصيف، اللتين سنَّهُما هاشم، وقد قال عبدالله بن الزَّبَعْرَي يمدحه:

سُنَّتْ إليه الرحلتان كلاهما سَفَر الشتاء ورحلة الأصْيَاف(١)

وفي الجانب الحضاري عموماً، سمَّى القرآن الكريم مكة: أم القرى، وفي ذلك دون شك ما يشير إلى تميزها عما حولها من البلدان في جزيرة العرب كلها، وفي القرآن أيضاً ما يفيد هذا التميز، إذ تحدث عن كثير من المظاهر الحضارية، مثل: المِشكاة، المصباح، الزجاج، المعارج إلى العليَّات، وأنواع الطيب: كالكافور، والمسك، والزنجبيل، وألوان الثياب المُترفة: كالنمارق والزرابي، والسُّرر، والفرش المنضَّدة بالإستبرق والسندس، وأنواع الأواني الفضية: كالقواريـر، والأكواب، والكؤوس، وألوان الحلي: كالمرجان، والذهب، واللؤلؤ، وتحدث عن تعاملهم مع الفخار، والحديد، والنحاس، والقدور، والجفان، والصِّحاف، كما أشار إلى ثقافتهم عموماً: فذكر القراطيس، والكتب، والسجلات، والصحف، والأقلام، والمداد، وكانوا يعرفون الموازين والمكاييل، وأنواعها ومصطلحاتها، وقد لبسوا الثياب المرفهة، والقمصان، والسراويل، والنعال، وتختَّموا بالذهب والفضة،

(١) المصدر السابق: ٢: ٤٤، وينظر: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ومكتبة النهضة، بغداد، ط. ٣، ١٩٨٠م، ٥: ٢٩١.

وفصَّصوا خواتمهم بحبَّات اللؤلؤ، ولبست النساء القرشيات الخُمُر، والجلابيب، والخلاخل، والأساور واستعملن الطيب، وكان لمترفيهم مجالس للسمر، والقصص، والفكاهة، والتلذذ بالفواكه، والخمور، وسماع الغناء، وسواها من علائم التحضر والتمدن[1].

ويفهم من ذلك كله: أن المكيين كانوا يعرفون جميع هذه المعاني الحضارية معرفة من اختلط بها، واندمج فيها، لأنه لا يخطر ببال عاقل أن يكون القرآن قد خاطبهم بما لا يفهمون، بل إن في خطابه لهم بهذا الشكل ما ينطق بأنهم في تلك الفترة قد أخذوا بأسباب الحضارة بالمفهوم السائد في وقتهم، وليس في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب والدهشة، فالمكيون كانوا يضربون في مناكب الأرض تجاراً: بين الشام واليمن، والعراق، ومصر، والحبشة، وفارس، والهند، وغيرها من بلاد الله، يشاهدون المعالم الحضارية آنذاك في كثير من أرقى حضارات العالم، فتناقلوا أخبارها، وحاولوا تقليدها، فظهر أثر هذا التقليد في ملابسهم، وبيوتهم، وبدا واضحاً في معاملاتهم ومختلف جوانب حياتهم، ومما يروى في ذلك، على سبيل المثال فقط: أن عبدالله بن جدعان زار العراق، فدخل بعض قصور الفرس، فأكل عندهم، وكان مما أكله (الفالوذج)، وهي نوع من الحلوى لم تكن معروفة عند العرب، تصنع من العسل والسمن، والبُر، ولب التمر، فتعجب منها ومن طيبها، فسأل عنها فوصفت له، فابتاع غلاماً يصنعها، وأخذه معه إلى مكة، وصار يصنع هذه الأكلة، ويؤكلها للناس في حومة البيت، حتى اشتهر أمرها، وممن أكلها الشاعر أمية بن الصلْت، فقال مادحاً لها ولصاحبها:

له داعٍ بمكة مُشْتَعِلٌ ... وآخَرَ فوق دارته ينادي
إلى رُدُحٍ من الشَّيزَي مِلاءً ... لُبابَ البُر يفلْبَك بالشِّهَاد[2]

(١) ينظر: التاريخ القويم: ٢: ٤٤.

(٢) ينظر: معجم البلدان: ٥: ١٨٥، والمفصل في تاريخ العرب: ٧-٥٨٢، والرُّدُح، جمع رَدَاح: الجفنة العظيمة، والشِّيزي: خشب أسود تصنع منه الجفان والأمشاط، ينظر: المعجم الوسيط: مادتي: (رَدَاح وشَيَّزَ).

المبحث الرابع: حرمة مكة:

لمكة حرمة عظيمة، وبركة ظاهرة، فهي لا تُقِر طاغياً جباراً على فساده، وظلمه، ولا باغياً على بغيه، وقد ثبت تاريخياً أنه لا مكان فيها لمن ظلم عباد الله، أو بَغَى عليهم، فمن فعل ذلك أخرجته من ربوعها، وطردته من جوارها، وفي ظلم جُرْهم، وبغيها بمكة، خير مثال على ذلك: فقد كان هؤلاء ولاة البيت، وسكان مكة، وأربابها، فاستحلوا الحرام، وأكلوا مال الكعبة، وظلموا من دخلها، فكانت تجاورهم قبيلة خزاعة، حلولاً حول مكة، فظلموهم، واعتدوا عليهم بالقتال، فاقتتلوا، فجعل الحارث بن عمرو الجرهمي يُنشد، طالباً من ربه النصرة على الخزاعيين، مشجعاً بني قومه على الصمود، حاثاً لهم على القتال:

لا هُمَّ إن جرهماً عبادُك ... الناس طُرْف وهمُ تِلادك[1]

ولكن النصر كان حليف خزاعة، فاستولت على مكة، وطردت الجرهميين عنها، وفي ذلك قال شاعرهم عمرو بن الحارث الأصغر الجرهمي، مصوراً آثار الهزيمة على نفوس بني قومه، ومدى الذل والهوان والندامة التي لحقتهم، نتيجة ظلمهم لعباد الله، وترويعهم لسكان البلد الأمين:

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا
أنيسٌ ولم يَسمُر بمكة سامر
ولم يتربَّع واسطاً فجنوبَه
إلى السِّرِّ من وادي الأراكة حاضر
بلى نحن كنا أهلَها فأبادنا
صروفُ الليالي والجدودُ العواثر

(١) ينظر معجم البلدان: ٥:١٨٦، والمعارف: ٦٤٠، والطُّرْف: الطريف الحادث، والتِّلاد: القديم، ينظر: المعجم الوسيط، مادتي (طَرَفَ وتَلَدَ).

وأبــــدلنا ربـــي بـــها دار غـــربة
بـها الجـوع بـادٍ والعـدو المـحاصر
وكـــنا ولاة البـيت مـن بـعد نـابت
نـطوف بـباب البيت والخير ظـاهر[1]
فأخــــرجــــنا مـنها المـليك بـقدرة
كـذلك مـا بـالناس تـجري المـقادر
فـــصرنا أحـــاديثاً وكـــنا بـــغبطة
كـذلك عـضَّتنا السـنينُ الغـوابـر[2]
وبـــدلنا كـــعب بـــها مـــنزل ذلة
بـــه الذئب يـعوي والعـدو المكـاثر
فَسَـحَّت دمـوعُ العـين تـجري لبـلدة
بـها حَـرَم أمْـن وفـيها المشـاعر[3]

ومن الأمثلة الحية، التي لا تزال شاخصة للأبصار إلى يومنا هذا، على سوء مآل من يريد مكة بشر، ما صوره القرآن الكريم من قصة أبرهة الأشرم، وإقدامه على هدم الكعبة، في سورة [الفيل][4]، ذلك أن أبرهة، قائد الأحباش باليمن، كان جباراً عنيداً، وقد بلغه أن العرب صاروا ينصرفون بتجارتهم عن اليمن إلى مكة، لمكانتها العظيمة عندهم، لوجود الكعبة فيها، فامتلأت نفسه غيظاً أن يترك الناس

(١) نابت: أكبر ولد إسماعيل، وليَ أمر البيت بعد وفاة والده، ثم ولِيَ بعد وفاة نابت خاله مضاض بن عمرو الجرهمي، واستمرت ولاية الجرهميين للبيت الحرام دهراً طويلاً، حتى أخرجتهم منه خزاعة، ينظر: معجم البلدان: ١٨٥:٥.

(٢) صوابها: أحاديث، لأنها ممنوعة من الصرف لصيغة منتهى الجموع.

(٣) معجم البلدان ٥: ١٨٦.

(٤) هي قوله تعالى:﴿ألم تركيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدَهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾، (الفيل: ١-٥).

اليمن بخيراتها، ويتجهون إلى ذلك المكان القفر، مع ما أوغر صدرَه من كلام المحيطين به، وإغرائهم له ببساطة هدم الكعبة، وتوجيه الناس إلى اليمن، فسار إليها في جيش عظيم، تتقدمه الفيلة، وما أن اقترب منها حتى أهلكه الله، وجيشه وفيلتَه، بالطير الأبابيل، قبل الوصول إليها، بمكان اسمه: (المُغمّس) قرب مكة، على طريق الطائف[1].

ومما سجل به الشعراء الجاهليون هذه الحادثة، قول عبدالمطلب بن هاشم مستنصراً ربه على الأحباش، وهو آخذ بحلْقة باب الكعبة:

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهمُ حِماكا
إن عَدُوَّ البيت من عاداكا ... إنهمُ لن يقهروا قُواكا[2]

ثم قال، حامداً ربه، بعد أن أهلك أبرهة وجيشه:

أن منعتَ الجَيْشَ والأفْيالا ... وقد رَعوْا بمكة الأجْبَالا
وقد خشِينا منهم القِتَالا ... وكل أمْرٍ منهم مُعْضالا
يا رب لا أرجو لهم سواكا[3]

وقول شاعر يُدعى أبا أمية:

إن آياتِ ربَّنا بيناتٍ ... ما يُمَارِي بهن إلا كفور
غُلِبت الفيلُ بالمغمَّس حتى ... ظل يجفو كأنه مسحور
حوله من شباب كِندة فتيان ... ملاويت في الحروب صقور

(١) في حادثة الفيل كلام كثير، وتفصيلات منوعة، أوردتها مصادر عديدة، ينظر: على سبيل المثال فقط: تفسير القرطبي: ٢٠:١٨٧ وما بعدها، وتفسير الفخر الرازي: ١٦:٩٦ وما بعدها، والمفصل في تاريخ العرب: ٣:٥٠٧ وما بعدها، وغيرها.

(٢) ينظر: المفصل في تاريخ العرب: ٣:٥١٦، وتفسير القرطبي: ٢٠:١٩١.

(٣) تفسير القرطبي: ٢٠:١٩٦.

واضِـــعٌ خـــلفَه الجِــرار كــما　　قطَّر صخر مـن جـانب مـحرور[1]

وقول شاهد عيان سلِم من الحادثة، وهو رجل من كـنده اسمـه: نُـفَيْل بـن حبيب، يصوِّر هوْل الواقعة، كما شاهدها، لامرأة يخاطبها:

فـــإنك لو رأيت ولم تَـــرَيْهِ　　لدى جَنْب المُـغَمَّس مـا لقـينا
خَشـــيتُ الله قــد بَثَّ طــيرا　　وظــلَّ ســحابة مــرَّت عـلينا
وبــاتَتْ كــلها تــدعو بــحق　　كأنَّ لها على الحُـبْشَان دَيْـنَا[2]

وقريب من قصة أبرهة، ما أورده القِبطي في أعلامه من قصة أسعد الحميري (تبع)، وجبروته، واتساع ملكه، وكثرة وزرائه، وانتهائه إلى مكة في جولة له في أرجاء مملكته، معتقداً أن أهلها سيدينون له بالطاعة كما دان غيرهم، إلا أنهـم لم يعترفوا به ملِكاً عليهم، ولم يعظموه، فأغضبه ذلك شديداً، وشكا إلى كبير وزرائه ما فعله به أهلُ مكة، فهوَّن عليه: بأنهم عـرب لا يـعرفون شـيئاً، وأن لهـم بـيتاً يقدسونه يسمى: (الكعبة)، وهم معجبون به، فأغاظه ما سمع، فعسكر بجيشه ببطحاء مكة عازماً على هدم البيت، ناوياً لمكة وأهلها شراً، فأخذه صداع شديد، وتفجر منه ماء نَتِن، كان سبباً في تفرق الناس عنه، ولما اشتد به الحـال، خـلا بـه أحـدُ العلماء، وأفهمه: أن سبب ما هو من ضيق وشدة، ما نواه للبيت وأهله من سـوء، فبادر الملك بالرجوع عن نيته، فشُفِي من ساعته، فكسا البيت، وأكرم العلماء[3].

---

(1) التاريخ القويم: ٣٦:٢، وشباب ملاويت: أقوياء، متمرسون بالحرب، كما في المعجم الوسيط، مـادة: (لأتَ)، ووردت الأبيات في معجم البلدان: ١٦١:٥، مع اختلاف في نصها، ونسبتها لقائلها، فقد وردت بالنص التالي، منسوبة لأمية بن أبي الصلت:

إن آيــــاتِ ربِّــنا ظــاهرات　　مــا يــمارِي بـهن إلا الكَـفُور
حُبِس الفـيلُ بـالمغمَّس حـتى　　هـــل يــحبو كأنــه مــعقور
كل دِيـنٍ يـوم القـيامة عـند الـ　　ــله إلا دِيــن الحـنيفة بـور

(2) تفسير القرطبي ٢٠: ١٩٩ـ ٢٠٠.

(3) ينظر: التاريخ القويم: ١٨٧:٤، والتتابعة الذين أرادوا هدم الكعبة أكثر مـن واحـد، يـنظر المـصدر السـابق: ١٨٨:٤ وما بعدها.

المبحث الخامس: الاحتماء بمكة:

عُرفت بلاد مكة بحرمتها، وشرفها، وقدسيتها، وليس أدل على ذلك: من تشريف الله لها، بوصفها بالبلد الأمين، والقَسَم بها، في قوله تعالى: ﴿وَ هٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[1]، والراحة النفسية، والأمان، يشعر بهما كل من دخل مكة، منذ أن خلق الله الخلق وإلى الأبد، ومن هنا صارت ملاذ الخائف، والمظلوم، وذي الحاجة، ومن شابههم، حيث لجأوا إليها محتمين بها، معترفين بفضلها.

فمن احتموا بمكة والكعبة: رجل من بني عبدالله بن دارم، كان زوجاً لابنة زرارة بن عُدُس، اسمه سويد، وكان طلبة المنذر بن ماء السماء، لأنه قتل ابنه مالكاً، ومالك هذا غلام حدث كان المنذر قد أودعه عند زرارة، ثم إن الغلام خرج يوماً يتصيد فلم يُصِب شيئاً، فمرَّ بإبل لسويد، فأمر بناقة فنُحِرت له، فاشتوى، وكان سويد نائماً، فلما استيقظ شدَّ على الغلام فقتله، وخرج هارباً، فاحتمى بمكة، وحالف بني نوفل بن عبد مناف، وأقام عندهم، وقد طلبه المنذر لثأر ابنه، فقيل له: إنه احتمى بمكة، فصرف النظر عن اللحاق به، وثأر من بنيه، وكانوا سبعة ووفَّى ثأره بقتل مائة رجل من قوم سويد[2].

(١) التين:٣.

(٢) ينظر: الخزانة: ٤: ٥٢٤ وما بعدها.

وكانت طيىء تطلب عثرات زرارة وقومه لثارات بينهم، فاستغل شاعرهم عمرو بن ثعلبة الطائي هذه الحادثة وأغرى المنذر بزرارة، فقال:

مـــــن مُـــبْلغٌ عـــمراً بأ نَّ المرء لم يُـخلق صُـبارة[1]
وحـــــــوادث الأيـــام لا يـــبقى لهـا إلا الحـجارة
أنَّ ابـــنَ عُـــجْزَة أُمِّـــهِ بـالفسح أسـفل مـن أُوَارة[2]
تسـفِي الريـاح خـلال كَشْـــحيه وقـد سـلبوا إزاره
فـــــاقتل زرارة لا أرى في القوم أوفى مـن زرارة[3]

وهذا النابغة الذبياني يعتقد أن الطير تعوذ بمكة، لأنها تجد فيها الأمان، فأقسم للنعمان برب العائذات بالبيت وبمكة، أنه لم يرتكب في حقه شيئاً مما سمعه من الوشاة، وأن ذلك كله كذب وافتراء، يقول معتذراً للنعمان:

والمـؤمِنُ العـائذات الطيرَ تـمسحُها ركـبان مكـة بـين الغَـيْل والسـند
مـا قـلتُ مـن سيِّىء مـما أُتيتَ بـه إذن فـلا رفـعتْ صـوتي إلى يـدي
إلا مـــقالة أقـــوام شَـــقِيتُ بـها كـانت مـقالتهم قـرعاً عـلى الكـبد [4]

وكان لحرب بن أمية حليفٌ من حضرموت قدم على مكة، فأراد أن ينزل خارجها، فلما سمع به حرب دعاه إلى دخول مكة، ليأمن على نفسه، وماله، من أعدائه، ومن اللصوص، واسم الحضرمي: أبو مطر، فقال حرب يخاطبه:

أبـــا مـطر هـلم إلى الصـلاح فـيكفيك النَّـدامَى مـن قـريش

---

(١) الصُبَارة: لعله من الصَّبَّار، ثمر شديد الحموضة، أو من الصَّبْرة، وهي الكومة من الحجارة ونحوها، أي لم يخلق بدون فائدة، ينظر: المعجم الوسيط، مادة: (صَبَرَ).

(٢) العُجْزة: آخر الرجل، يقال: هو ابن عُجْزة، ينظر السابق، مادة: (عَجَزَ).

(٣) الخزانة: ٦: ٥٢٤ وما بعدها.

(٤) ينظر: ديوان النابغة الذبياني، تقديم وشرح: فارس صويتي، مكتبة كرم، دمشق، دار الكتاب العربي، بيروت، لا. ط.، لا. ت.: ٦٨ وما بعدها.

وتـــــنزل بــلدةً عـــزَّت قــديماً وتأمـــن أن يـــزورك رب جـــيش
فـــتأمن وســـطهم وتـعيش فـيهم أبـــا مـطر هُـديت بـخير عـيش[1]

وفي فترة من فترات الجـاهلية، كثُرت الزعامات في قريش، فحصل بـينهم تغالبٌ وتجاذبٌ، لم يكُفَّهم عنه سلطان، وبلغ الأمر أن حدث من بعضهم تعدٍّ على حقوق الآخرين، كان مدعاة لهم إلى التحالف على رد المظالم، وإنصاف المـظلوم، ومن ذلك مثلاً:

أنَّ رجلاً من اليمن قدم مكة مـعتمراً، ومـعه بـضاعة عـرضها، فـاشتراهـا منه رجـل مـن بـني سهـم، فـغَمَطه حـقه، فـقام اليمـني عـلى الحِـجْر، وأنشـد بأعلى صوته:

يـــــالَ قـــصي لمـــظلوم بـــضاعته بـــبطن مكـــة، نـــائي الدار والنـــفر
وأشــعث مُـحرِمٍ لم تُـقضَ حـرمته بين المـقام وبـين الحِـجْر والحَـجَر
أقـــائم مـــن بـــني ســـهم بـــذمتهم أو ذاهب في ضـلال مـال مـعتمر[2]

فلما سمعته قريش ردَّت عليه ماله.

وأنَّ قيس بن شيبة السُّلَمي باع متاعاً له بمكة لأبي بن خلف، فأنكره حقه، فاستجار برجل من بني جُمح، فلم يُجره، فاستصرخ القرشيين قائلاً:

يـال قـصي كـيف هـذا فـي الحـرَمْ وحـــرمة البـــيت وأحـــلاف الكـرم
أظلم لا يمنع عني من ظلم[3]

وهو الآخر وَجَد من قريش إنصافاً.

---

(١) معجم البلدان: ٥:١٨٤.

(٢) المفصل في تاريخ العرب: ٢:٥٠٢.

(٣) المصدر السابق.

وعلى هذا النحو تبدو مكة، قبل الإسلام، بلداً آمناً، يأوي إليه المظلومون، والخائفون، ومن في حكمهم، لاعتقادهم في أمنها، وبركتها، وقد خلّد الشعراء القدامى هذه المشاعر النبيلة نحو مكة، وأمنها، واستقرارها.

المبحث السادس: الحَلِفُ ومقدَّسَاتها:

كثُر حَلِف العرب الجاهليين بالأماكن المقدسة، ولا سيما مكة والبيت الحرام، بصيغ مختلفة مثل: ورب مكة، والله، والبيت الحرام، وبيت الله، وما شابهها، وليس لذلك معنى إلا تلك المكانة الروحية الكبيرة لمكة في وجدان العرب، ويمكن الوقوف على أمثلة مما ورد في الشعر الجاهلي بالخصوص، من ذلك:

قول عَدِيّ بن زيد العبادِي، معاتباً النعمان بن المنذر على حبسه، وأخذ رأي الوشاة فيه، مقسماً برب الكعبة أنه وشاية الأعداء:

سعى الأعداء لا يَأْلُون شراً ... عليك ورب مكة والصليب[1]

وقول الشاعر قيس بن الخطيم في تصوير بياض لون حبيبته، إذ شبهها بالدرة المجْلُوة، مقسماً بالله أنه يهواها:

كأنها درة أحاط بها الـ ... ـغواص يجلو عن وجهها الصُّدف
والله ذي المسجدِ الحرام وما ... جُلِّل من يُمنة لها خُنُف
إني لأهواكِ غير ذي كذب ... قد شَفَّ مني الأحشاء والشغف[2]

وفي قصيدة له أخرى في حرب شبَّت بين قومه وأبناء عمومتهم من الأوس،

---

(١) السابق: ٦:٦٦٥.

(٢) ديوان قيس بن الخطيم برواية ابن السِّكِّيت، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار العروبة، القاهرة، ط. ١، ١٩٦٢م: ٦٠ وما بعدها، وعبدالله بن قريب، الأصمعيات، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف، مصر، ط. ٣، لا. ت.: ١٩٧، واليُمْنَة: ضرب من بُرود اليمن، والخُنُف جمع خَنِيف: الكتان الأبيض الغليظ، وشفَّ: رق، والشغف: درجة متقدمة من الحب، ينظر: المصدر السابق، والمعجم الوسيط: مواد: (يَمَنَ وخَنَفَ وشَفَّ وشَغَفَ).

يُظهر تعظيمه للبيت، فيقول:

أقسمت لولا الذي زعمتُ وما خَبَّرْتُ قوماً عن مجدهم كذباً
وقد أضعت الذي حفظتُ من الـ ـوُدَّ لقدَّمتُ مِدْحَةً عَجَباً
الحمد لله ذي البَنِيَّة إذ أمستْ دُحَيٌّ قد أُثْخِنت غَلَبَا(١)

كثُر حَلِف العرب الجاهليين بالأماكن المقدسة، ولا سيما مكة والبيت الحرام، بصيغ مختلفة مثل: ورب مكة، والله، والبيت الحرام، وبيت الله، وما شابهها، وليس لذلك معنى إلا تلك المكانة الروحية الكبيرة لمكة في وجدان العرب

ويقسم النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر، بالله رب الكعبة أنه لم يرتكب في حقه سوءاً وإثماً، وإنما هي الوشاية من المنخل اليشكري، فيقول:

فلا لعمر الذي قد زرتُه حِجَجاً وما هُرِيق على الأنصاب من جسد
ما إن أتيتُ بشيء أنت تكرهه إذن فلا رفعتْ صوتي إلى يدي(٢)

ومما نُسب للنابغة أيضاً: قوله في تبرئة نفسه أمام النعمان، مقسماً بالأماكن المقدسة:

حلفتُ بمن تُساق له الهدايا على التَّأْديب يعصمها الدَّرين
برب الرافعات بكل شُهب بشُعثِ القوم موعدها الحَجون(٣)

ولمكانة هذه المقدسات عندهم، كان للحلف أهمية كبيرة في نفوسهم.

(١) ديوان قيس بن الخطيم: ١١٤-١١٥.
(٢) ديوان النابغة: ٦٨، وينظر: الخزانة ٥:٧٣.
(٣) ديوان النابغة: ١٥٠.

وفي المعنى ذاته: توجد للشاعر عامر بن الطفيل قصيدة يخاطب فيها زيد الخيل، ويمدح نفسه، مقسماً برب المقدسات أنه قليل أمثاله في بني عامر، يقول:

إنــني والذي يــحج له النــا ... س قليل في عـامر أمـثالي[1]

ومن هذا القبيل: البيت التالي، لشاعر جاهلي:

فأقســم بــالذي حــجت قــريش ... ومـوقف ذي الحـجيج إلى إلاَل[2]

وعلى النحو السابق: تذكر المصادر للشاعر عوف بـن الأحـوص أبـياتاً في تعظيم البيت، والحلف بالمقدسات أن يظل وفياً، وذلك من قـصيدة طـويلة له في طلب النَّصَفَة والتحكيم بين قومه: بني جعفر، وأبناء عمومتهم: بني أبي‌بكر، وكان نفر من بني جعفر قد اعتدوا على رجل من بني أبي‌بكر، وأهانوه، فـطلب هـؤلاء التحكيم والنصَفَة من قوم الشاعر، فرفضوا، غير أن رفضهم لم يُـرْض الشـاعر، فقال ـ يحثهم على محاولة استرضاء بني عمومتهم، تفادياً للحرب، وإبقاء على الوُدِّ القديم بينهم ـ:

هُـــدِّمت الحـياضُ فـلم يــغادَر ... لحــــوضٍ مــــن نَــــصَائبه إزاء
لخـــولة إذ هــمُ مــغْنىً وأهــلي ... وأهـــلك ســاكــنون مــعاً رِثــاء
فَـــلأْياً مـــا تَــبِينُ رسـوم دار ... ومــا أبــقَى مـن الحَـطَب الصِّلاء
وإنـــي والذي حـــجت قـــريشٌ ... مـــحارمَه، ومــا جـمعتْ حــراء
وشـــهر بــــني أمـيةوالهـدايـا ... إذا حُـــبِست مُـــضَرَّجها الدمــاء
أذمك مـــا تــرقرق مـاء عــيني ... عــــــليَّ إذا مـــن الله العـــفاء
أمُـــر بـــحكمكم مــادمت حــياً ... وألزمــــــه ورن بـــلغ الفـــناء

---

(١) ديوان عامر بن الطفيل برواية الأنباري عن ثعلب، دار صادر، ودار بيروت، لا. ط. ١٩٦٣م: ١٠٢.

(٢) المفصل في تاريخ العرب: ٦: ٤٣٠.

فــلا تـتعوَّجوا فـي الحكـم عـمداً ‏ ‏ كــــما يـــتعوّج العــود السِّــرَاء
فـــإنك والحكــومة يــابن كــلبٍ ‏ ‏ عَــــليَّ وأن تُكـــفني ســـواء[١]

ويقسم زهير بن أبي سُلمى بالبيت، ويعظمه، على أن الحارث بـن عـوف، وهرم بن سنان من أحسن العرب مكانة، وأكثرهم كـرماً، في كـل الأحـوال: في الشدة والرخاء، واليسر والعسر، لإنهائهما الحرب الضروس بين عبس وذبـيان، التي دامت زمناً طويلاً، وأفنت الكثير من الرجال، والأموال، بسبب سـعيهما في الصلح، عن طريق دفع ديات القتلى من أموالهما، وذلك في معلقته المشهورة: (أمِنْ أمِّ أوْفَى)، التي منها قوله:

سـعَى ساعياً غـيض بـن مـرة بـعدما ‏ ‏ تـــبزَّل مـــا بـــين العشـــيرة بـــالدم
فأقســمت بـالبيت الذي طـاف حـوله ‏ ‏ رجــالٌ بَــنوْه مــن قــريش وجـرهم
يـــميناً لنــعم السَّــيدان وُجــدتُما ‏ ‏ عــلى كـل حـال مـن سَحِيل ومُـبْرَم
تـــداركـتُما عــبساً وذبــيان بــعدما ‏ ‏ تــفانَوْا ودقُــوا بـينهم عـطر مـنشم[٢]

والشعر القديم في هذا المنحى كثير، ولعل فيما أوردناه من الأمثلة توضيح كافٍ على مدى تعلق العرب جميعاً بمكة المكرمة والبيت الحرام، وغيرها من المقدسات، قبل الإسلام.

المبحث السابع: مكانة قريش عند العرب:

تُعد قريش قلب العرب، وصفوتهم، وقبلتهم منذ القدم، وهي تُدعى في أول أمرها: النضر بن كنانة، وكانت أحياء متفرقة في بني كنانة، فـجمعهم قُـصي بـن

---

(١) ينظر: المفضل بن محمد الضي، المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر، عبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط. ٣، ١٩٦٣م: ١٧٣-١٧٤.

(٢) أحمد بن يحيى (ثعلب)، شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط. ١، ١٩٦٤م: ١٤-١٥.

كلاب، (الجد الرابع للنبي ﷺ)، من كل ناحية فسُمُّوا قريشاً لذلك[1]، وسُمي قصي: مُجمِّعاً، لأنه جمعهم، وجعلهم قبيلة واحدة، وفي هذا المعنى قال شاعرهم:

إنـــني والذي يـــحج له النـــا س قليل في عـامر أمـثالي[2]

ولمكانة قصي من البيت الحرام، ومنزلة القرشيين من قصي، صـار لهـم مـع مـرور الزمـن شأن عـظيم بـين العـرب، حـتى إنهـم كـانوا يسـمونهم: آل الله، وجيران الله، وسكان الله، وما شابه ذلك، وفي المعنى يقول عبدالمطلب بن هاشم:

نـــحن آل الله فـــي ذمـته لم نزل فيها على عهد قدم
إن للـــــبيت لرباً مـــانعاً من يُرِد فـيه بـإثم يُـخترَم
لم تـــزل لله فـــينا حـــرمة يدفع الله بها عـنا النـقم[3]

(١) سُمُّوا قريشاً من التَّقْريش، أي: التجميع بعد التفرق، أو بسبب كونهم تجاراً يجمعون بين الأشـياء المـتفرقة، وليس لهم أبٌ ينسبون إليه يسمى قـريشاً، وفـي سـبب التسـمية هـذه آراء مـتعددة، يـنظر: تـفسير الرازي: ١٦:١٠٧-١٠٦، وتفسير القرطبي ٢٠: ٢٠٣، والتاريخ القويم: ٢:٤٦ و ٣:١٤٥، والسيرة: ١:٩٣ وما بعدها.

(٢) التاريخ القويم: ٣:١٤٥.

(٣) المصدر السابق، وينظر: المفصل في تاريخ العرب: ٤:٢٤.

وقول أبي طالب يرثي أبا أمية بن المغيرة، زوج أخته عاتكة بنت عبدالمطلب، وكان خرج في تجارة إلى الشام، فمات في الطريق، ومما قاله في رثائه:

تنادَوْا بأنْ لا سيِّد الحيِّ فيهم ... وقد فُجع الحيان: كعب وعامر
فكان إذا يَأْتي من الشام قافلاً ... بمقدمه تسعى إلينا البشائر
فيصبحُ أهلُ الله بيضاً كأنما ... كستهم حَبِيراً رَبْدَة ومَعَافر[1]

وهكذا تبدو مكانة قريش بين العرب الجاهليين، كما صورها شعراؤهم قبل الإسلام، وقد حفظوا لهم هذا الشرف منذ القدم، فكانوا يقصدونهم من أقاصي شبه الجزيرة العربية لإقامة مناسك الحج والعمرة، وللبيع والشراء، وعقد معاهدات الصلح، والحرب، والتحالف، وللمشورة والتحكيم، وما شابه ذلك، وهذه المكانة العظيمة للقرشيين لم تأت مصادفة، أو لمجرد مجاورتهم للبيت، وسكنهم في مكة، وكونهم من أصل شريف، فقط، بل أيضاً لأنهم كانوا أصحاب فصاحة وبلاغة لا تُضاهى، كما شُهروا برجاحة العقل، وسعة الأفق، وعمق التجربة، وقد نضجت فيهم الحياة العقلية بصفة عامة، نضجاً لمسه العرب دون شك في سعة تفكيرهم، وسداد معاملاتهم، وحسن آرائهم، من خلال احتكاكهم بهم في المعاملات التجارية، داخل مكة وخارجها، كما عرفوهم من خلال خططهم الحربية، وأسواقهم العامرة بصنوف القول، إلى جانب صنوف التجارة، وحكمتهم العميقة الموشِّحة لأشعارهم، وأمثالهم، وهي دون شك تنم عن عقل راجح، وتفكير قويم، من مثل: الجهل شرُّ الأصحاب، حسْبك من شرٍّ سماعه، من خان هان، عند الصباح يحمد القوم السّرَى، وغدَرَك من دلَّك على الإساءة، وما شابه ذلك[2].

وبما أن الشعر من الأمور المهمة لدى العرب الجاهليين، فإنهم كانوا يحتكمون

(١) الخزانة: ٨:١٤٧.
(٢) ينظر: التاريخ القويم: ٢:٤٦.

فيه لهذه القبيل، فكان الشعراء يقدُمُون على مكة في موسم الحج لأداء المناسك، وعرض أشعارهم على القرشيين فما قبلوه، واستحسنوه، قُبل، وسار بين العرب قاطبة، وما رفضوه رُفض، ومن ذلك أنه قدِم عليهم علقمة الفحل، فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمتَ وما استودعتَ مكتوم أم حبلها إذ نأتْك اليوم مصروم

فقالوا: هذا سِمْط الدهر، ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم:

طَحَا بكَ قلب في الحسان طَروُب بُعَيْد الشبابِ عصْرَ مَشيب

فقالوا: هاتان سِمْطا الدهر[1].

وكان الشاعر يقول الشعر في قبيلته، أو في غيرها من الأماكن خارج مكة، فلا يُعبأ به، ولا يأخذه عنه أحد، حتى يأتي مكة في الموسم، فيعرضه على أندية قريش، فإن استحسنوه، اهتموا به، وعُلِّق على الكعبة، واستنشده الناس، وسارت به الركبان، وكان فخراً لصاحبه، وإن لم يستحسنوه: طُرح ورُدَّ عليه، وأول من عُلّق شعره في الكعبة: امرؤ القيس، وبعده عَلَّقت الشعراء، والشعر الذي يُعلق على الكعبة يسمى: المعلقات، ومن الاحتفاء به أن كانت القصائد الجيدة تُكتب بماء الذهب على القَبَاطِيِّ، وتعلق على ركن من أركان الكعبة، وتسمى: المُذَهَّبَات[2]، ولا غرو، فالشعر الذي يصل إلى هذه المنزلة لابد أن يكون مرَّ بمراحل من التنقيح، والتنقية، والاختيار، ما أوصله إلى قمة النضج: فصاحةً، وبلاغةً، وحكمةً، وعمقاً في التفكير، ولاشك أن القرشيين في مستوى هذه المرحلة الناضجة من حسن الاختيار، إذ لا تزال مختاراتهم مثار إعجاب، وقدرة، إلى

(١) السِّمط: الخيط مادام منظوماً فيه الخرز (القلادة)، ينظر: المعجم الوسيط، مادة:(سَمَطَ)، والمقصود: الشيء الثمين، الرفيع المكانة.

(٢) ينظر: الأعلم الشنتمري، شرح ديوان علقمة الفحل، لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، سوريا، ط. ١، ١٩٦٩م: ٩، والمذهبات: كتبت بماء الذهب وعلّقت على الكعبة، ينظر: الخزانة: ١:١٢٦.

يومنا هذا.

ولأن مكة قِبْلَة العرب، والقرشيين ساداتهم، كان العرب يهرعون إلى مكة والقرشيين كلما حَزب بهم أمر، أو ضاقت بهم سبل، أو ألجأتهم حاجة كائنة ما كانت، فقد هرع إليهم قيس بن زهير العبسي طارداً إبلاً لابن عمه: الربيع بن زياد العبسي، في شحناء بينهما، سبق بها زياد، إذ خَدَع قيساً في درع له ساومه فيه، وهو على ظهر فرسه، ثم أخذ الدرع لينظر فيه، فهرب به ولم يرده، فاغتاظ زهير، واستاق إبلاً للربيع واحتمى بالقرشيين، وباع الإبل مقايضة بأدراع وأسياف من عبدالله بن جدعان، وقيل: من حرب بن أمية وهشام بن المغيرة، ثم جاور بن قُشير، وفي ذلك يقول:

ألم يأتيك والأنباءُ تَنْمِي ... بما لاقت لبون بني زياد[1]
ومَحبَسُها على القرشي تُشْرَى ... بأدراع وأسياف حداد
أُطوِّف ما أُطوِّف ثم آوي ... إلى جارٍ كجار أبي دؤاد[2]
كفاني ما أخاف أبو هلال ... ربيعة، فانتهتْ عني الأعادي[3]
كأني إذا أنختُ إلى ابن قرط ... أنختُ إلى يَلَمْلَم أو نَضَاد[4]

ومن اتجاه العرب لقريش: أنه وقعت حرب ضروس بين الأوس والخزرج، انتصر فيها الخزرج، ثم إنهم استنصروا اليهود تحسباً لرد الثأر، فلما رأت الأوس

(١) في هذا البيت شاهد نحوي في (يأتيك) بإثبات الياء مع الجازم، ينظر: الخزانة: ٨: ٣٦١ وما بعدها.

(٢) هو أبو دؤاد الإيادي، عاش في الجاهلية، جاور الحارث بن هَمَّام بن مرة الشيباني، وكان لأبي دؤاد هذا ابن خرج يلعب مع الصبيان في غدير ماء، فغمسوه فيه، فقتلوه، وكان عددهم تسعة، أو عشرة، فحكم الحارث بإغراقهم جميعاً، أو تُدفع دية عن كل واحد منهم، فَوُدِي ابن أبي دؤاد بتسع ديات أو عشر، ينظر: الخزانة: ٨: ٣٧٠-٣٧١.

(٣) ربيعة: هو ربيعة بن قرط بن سلمة بن قُشير، ويسمى: ربيعة الخير، ويكنى: أبا هلال، وقيل غيره، ينظر: المصدر السابق ٨: ٣٧٠.

(٤) الخزانة: ٨: ٣٦٥ وما بعدها، ويَلَمْلَم: جبل على بعد ليلتين من مكة، وقيل: وادٍ، ونَضَاد: جبل بالعالية، ينظر: معجم البلدان: ٥: ٤٤١ و ٢٩٠.

ذلك التحالف خافت سوء العاقبة، فسارعت تطلب النصرة من قريش، وفي ذلك يقول شاعرهم قيس بن الخطيم:

تقول صنيعتي لما استقلت ... أتترك ما جمعْتَ صَرِيم سَحْرْ[١]
فقلت لها ذريني إن مالي ... يروح إذا غلبتُهُم ويَسْري
وتحمل حربَهم عنا قريشٌ ... كأن بنانَهم فريكُ بُسْر[٢]
ونُدرِك في الخزارج كل وتر ... بذمِّ الكاهنين وذمِّ عمرو[٣]

والقصيدة طويلة.

وفي العصر الجاهلي، كان يلجأ إلى القرشيين الفاتكون، وقاطعو الطرق، والخارجون عن قبائلهم باحثين عن الأمان والاستقرار، فهذا الحارث بن ظالم، يفتك بخالد بن جعفر بن كلاب، وكان جاراً للنعمان بن المنذر، وفي رعايته، ويخاف الحارث أن تَطَاله يد النعمان، فيحتمي بقريش، ويمدحهم، فيجد فيهم الأمن والأمان، فينتسب إليهم، ويعاشر فيهم، ويقلع عن النهب، والسلب، والقتل، وهو القائل في المعنى:

وإني يوم غَمْرَة غير فخر ... تركتُ النهبَ والأَسْرَ الرِّغابا[٤]
فلست بشاتم أبداً قريشاً ... مصيباً رُغم ذلك من أصابا
فما قومي بثعلبة بن سعد ... ولا بفزارة الشِّعْرَى رقابا
وقومي إن سألتُ بني لؤي ... بمكة علَّموا الناس الضِّرابا

---

(١) صَريم سَحْر: ميت، منته، لا فائدة منه، فالسَّحْر والسُّحْر والسَّحارة: كل ما تعلق بالحُلْقوم من قلب ورئة، ينظر: المعجم الوسيط، مادة: (سَحَرَ)، والصَّريم: المنصرم، وإذا انصرمت الأحشاء مات صاحبها.

(٢) كأن بنانَهم تفريك بُبسر: كناية عن الشجاعة، وطول التجربة الحربية.

(٣) ديوان قيس بن الخطيم: ١٢٠-١٢١، والكاهنان: قُريظة والنَّضير، يقال: إنهم بنو الكاهن بن هارون النبي عليه السلام، وعمرو: لعله يقصد بني عمرو بن عوف الأوسي، ينظر المصدر السابق: ٢٠ و ١٢١.

(٤) غَمْرة: قيل: جبل، وقيل: موضع ماء بمكة، ينظر: معجم البلدان: ٤:٢١٢، ويوم غمرة: هو اليوم الذي ترك فيه السلب والنهب.

فـما غـطفان لي بأب ولكـن لؤيٌّ والدي قـولاً صـوابـا
فـلما أن رأيتُ بـني لؤي عـرفتُ الوُد والنسب القـرابـا[1]

ويسمع بأبيات الحارث هذه، الحُصَيْنُ بن الحُمَام المُرِّي، أحد سادات بني مُرَّة، وشاعرهم، فلم يعجبه، فينتقد الحارث نقداً لاذعاً، فيه مسٌّ بقريش، وذلك في قوله:

ألاَ لسـتُم مـنَّا ولسْـنَا إليكـمُ برِئْنا إليكـم مـن لُـؤَيّ بـنِ غـالب
أقَـمْنَا عـلى عِـزِّ الحـجاز وأنـتمُ بمُعْتَلَج البطحاء بين الأخـاشب[2]

ويقصد بمُعْتَلَج البطحاء: بطحاء مكة، أي سهولها حيث يعتلج القوم، ويتصارعون، وهو يعني قريشاً، غير أنه لم يلبث أن نَدِم ندماً شديداً على ما بدر منه، فأكذب نفسه صراحة، وعاد فمدح قريشاً، وانتمى إليهم، فقال:

نَدِمتُ عـلى قـول مـضى كـنتُ قـلتُه تَـبَيَّنْتُ فـيه أنـه قـولُ كـاذبِ
فـليت لسـاني كـان نـصفين مـنهما بَكِيمٌ ونِصْفٌ عـند مـجْرَى الكـواكبِ
أبُـونا كِـنانِيٌ بـمكة قـبرُه بـمعْتَلَج البـطحاء بـين الأخـاشب
لنـا الرُّبْـع مـن بـيت الحَـرَام وِرَاثَـةً وربع البطاح عند دار ابـن حـاطب[3]

وما حمل الحُصين على ما فعل، مع ما له من العزة والسيادة في قومه، إلا تلك المكانة العالية لقريش في نفسه.

ومن تبجيل العرب لقريش: الاعتراف لهم بالسبق، والفضل، على الأهل والقرابة، كما فعل عوف بن الأحوص في وصفه للحرب التي انتصرت فيها قريش على بني قومه، فهو يعترف لقريش بالقوة، وحسن النظام، والغلبة، في قوله:

---

(١) المفضليات: ٣١٤.
(٢) مكرر - السيرة: ١: ١٠٠.
(٣) المصدر السابق.

لمَّـــا دَنَـــوْنَا للــقِباب وأهــلها — أُتِــيحَ لنـا ذئب مـع الليـل فـاجر
أُتِــيحَتْ لنـا بكـر وتـحت لوائـها — كـتائب يـرضاها العـزيز المـفاخر
وجاءت قريش حـافلين بـجمعهم — وكان لهـم فـي أول الدهـر نـاصر
وكـانت قـريش لو ظـهرنا عـليهمُ — شفاء لما في الصدر والبغض ظاهر
حَبَتْ دونهم بكـر فـلم نستطعْهُمُ — كأنـــهم بـــالمشرفية ســـامر
وما بـرحت بكـر تـثوب وتـدعي — ويـــلحق مـــنهم أولون وآخـــر
لدن غُــدْوَة حـتى أتـى الليـل وانـ — ـجَلَتْ غـمامة يـوم شـره مـتظاهر
ومازال ذاك الدَّأْبُ حتى تـخاذلت — هــوازن فـارفضَّت سـليمٌ وعـامر
وكانت قريش يَفلِقُ الصخرَ حـدُّها — إذا أُوْهنَ الناسَ الجدودُ العواثرُ(١)

كما يظهر من الأبيات: فإن الشـاعر لا يُخْـفي إعـجابه بـقريش، ومـقدرتها الحربية، فهي وإن كانت هزيمتها، وحلفائها تُرضي غرور المُفاخر، وتَشـفي مـا في الصدور من الغيظ والحنق، لو انتصرت عليهم هوازن، إلا أن تصميم قريش على النصر ظاهر، يؤكده ما جمعته من حشود حافلة، وعزم قويٍّ يفلقُ الصخرَ، فغلب حظُّها على حظوظ سليم وعامر، فانتصرت عليهم، فتخاذلوا، وكَبَا بهم جَدُّهم.

وتحمل أبيات الأعشى التالية، معاني الفخر بقريش، والاعتراف لهـم بـعلو المنزلة، وسمو المكانة، يقول من قصيدة طويلة في هجاء عُمَيْر بن عبدالله بن عِيدان:

فما أنت من أهل الحَجُون ولا الصَّـفا — ولا لك حـق الشّـرْب مـن مـاء زمـزم
ولا جــعل الرحــمنُ بـيتَك فـي العُـلا — بأجْــيَادَ غــربِيَّ الصــفا والُــمحَرَّم(٢)

وهكذا تبدو مكانة القرشيين عند العرب القدامى كما صورها الشعراء في شعر كثير منوع.

---

(١) المفضليات: ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) ديوان الأعشى (ميمون بن قيس)، دار صادر، بيروت، لبنان، لا. ط.، ١٩٩٤م: ١٨٣، وينظر: معجم البلدان: ١٠٤:١.

المبحث الثامن: قريش قُدوة العرب:

مما زاد في فضل مكة، وفضل أهلها، مباينتهم للعرب بشكل واضح: أنهم كانوا متآلفين، متمسكين بكثير من شعائر دين إبراهيم عليه السلام، آخذين بأسباب التحضر والتمدن في وقتهم، ولم يكونوا كالأعراب الجفاة الأجلاف، ولا كمن لا يوقِّره دين، ولا يزينه أدب، ولا يهذبه خلق، فكانوا يحجون البيت، ويقيمون المناسك، ويردُّون المظالم، ويختتنون أولادهم، ويكفّنون موتاهم، ويغتسلون من الجنابة، وحرموا نكاح المحارم، وزوجوا بناتهم بالصداق والشهود، وتطليقهم كان ثلاثاً، قال ابن عباس، جواباً عن سؤال طلاق العرب: «كان الرجل يطلق امرأته تطليقة، ثم هو أحق بها، فإن طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضاً، فإن طلقها ثلاثاً فلا سبيل له إليها»[1]، ومما ورد للأعشى في ذلك:

أيا جارتي بِيني فإنك طالقة ... كذاك أمور الناس غاد وطارقة
وبِيني فقد فارقتِ غير ذميمة ... وَمَوْمُوقَة منا كما أنت وامقة
وبِيني فإن البين خير من العصا ... وأن لا تُرَى لي فوق رأسِكِ بارقة[2]

ومما ميزهم أيضاً: أَنَفَتُهم، وشعورهم بالسيادة، والتفرد، فكانوا يتزوجون في أي القبائل شاءوا ولا شرط عليهم، ولا يزوجون أحداً إلا بشرط أن يكون

(١) ينظر المصدر السابق ٥: ١٨٤.

(٢) المصدر السابق، وينظر: التاريخ القويم: ٢: ٤٤.

متحمساً[1] على دينهم، ولا يتنازلون عن هـذا الشرط أبـداً، لأنـه ـ في رأيهـم ـ يوجبه المحافظة على الدين، والشرف، قال شاعرهم مسافر بن أبي عمرو مفتخراً:

ورثـــنا المـــجد مــن أبــا ... ئــنا فَـــنَما بـــنا صُــعُدا
ألم نســـقِ الحـــجيج ونــنـ ... ـــحر الدَّلاَّفَـــة الرفـــدا
ونُـــلْفَى عــند تــصريف الـ ... ـــمنايا شُـــدَّداً رفـــدا
فـــإن نَــــهل فــلم نُــمْلَك ... ومـــن ذا خــــالد أبــــدا
وزمــزم فــي أُرُومــتنا ونـفْقَأُ ... عــــينَ مــــن حســــدا[2]

مما زاد في فضل مكة، وفضل أهلها، مباينتهم للعرب بشكل واضح: أنهم كانوا متآلفين، متمسكين بكثير من شعائر دين إبراهيم ﷺ، آخذين بأسباب التحضر والتمدن في وقتهم، ولم يكونوا كالأعراب الجفاة الأجلاف

وإلى جـانب ذلك: تـفرَّدت قـريش بكـثرة الألقـاب الدالة عـلى فـضلهم وجودهم، وتميزهم عن العرب، مثل: أهل الله، أزواد الركب، المطيبين، الأحلاف، الهاشميين، وما شابهها من صفات الكرم، والشجاعة، والمروءة، ومـن غـير شك

(١) الحُمُس والتَّحمُّس: التشدد في الدين، والأحْمَس: الشجاع، ومن يستطيع أن يفرض على الآخرين ما يـريد، وقد استطاع القرشيون أن يفرضوا على العرب سنناً ابتدعوها مغالاة في الديـن، فسـنوا الوقـوف بـالمزدلفة والإفاضة منها، بدلاً من عرفات، و فرضوا على الحجاج أن يتخلوا عن كل ما يأتون به معهم عند دخول الحرم، وأن يستبدلوا بثياب الحِل ثياب الحرم: شِرىً أو عارية أو هبة، فإن لم يجدوا ذلك طافوا بالبيت عرايا: الرجال في النهار، والنساء في الليل، وبلغ من تشددهم في الدين: أن الرجل إذا أحرم بالحج أو بالعمرة لا يدخل داراً، ولا خيمة، ولا بستاناً، وقد تعِنُّ له حاجة في بيته فلا يدخله، وإنما ينادي أهله ليخرجوا له ما أرادوا، كما منعوا على أنفسهم بعد الإحرام: السمن، واللبن، والزبدة، ولبس الوبر، والاستظلال بالشعر، وغزله، ونسجه، ولبسه، وما شابه ذلك من المبالغة في التشديد، ينظر: التاريخ القويم: ٤٣:٢ وما بعدها، والمفصل في تـاريخ العـرب: ٦-٣٦٢.

(٢) السيرة: ١٥١:١.

فإنه توجد مبررات لكل هذه التسميات[1] كتلقيبهم بالهاشميين، لأن جدهم عمرو هشم الخبز، وصنع موائد الثريد للفقراء في أيام القحط والجوع، فسمي: هاشماً، وفيه قال الشاعر مادحاً:

عمرو العلى هَشَم الثريد لقومه ورجال مكة مُسْنِتُون عجاف[2]

ومما سجلته العرب في شعرهم لقريش: ابتداعهم للمكرمات، والفضائل، والأعمال الخيرة، التي تنم عن عقل كبير، وفكر مستنير، فعلى سبيل المثال: أول من صنع الحريرة[3] سُويد بن هَرْمَى، وقد قال فيه شاعرهم مخاطباً بني مخزوم:

وعُلِّمتُمُ أكلَ الحرير وأنتمُ أعْلَى عداة الدهر جدُّ صلاب[4]

فهو يمدح القرشيين بطيب مآكلهم، ورفاهية عيشهم، ويعيِّر بني مخزوم بخشونة مآكلهم، وشظفهم.

---

(١) كانت العرب تُسمي قريشاً: أهل الله، لمجاورتهم الحرم، وتأكدت هذه التسمية، وانتشرت بين العرب، بعد حادثة الفيل، حيث قالوا: إن الله دافع عنهم، فهم أهله، (تفسير الرازي ١٦: ١٠٤، وتفسير القرطبي ٢٠: ٢٠٠ وما بعدها)، أما أزواد الركب فهم في الجاهلية ثلاثة نفر، أولهم: مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، والثاني: زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والثالث: أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وسُمي كل واحد منهم زاد الركب: لأنه إذا سافر مع قافلة كفاهم مؤونة الطريق فلا يتزود معه أحد بشيء، ولم يُسَم بذلك غيرهم، (الخزانة: ٨:١٤٧)، أما المُطيّبون: فهم بنو عبد مناف و من تابعهم من قريش، وإنما سُموا بذلك: لأنهم في تصالحهم مع بني عبد الدار على ولاية شؤون البيت، أخرجوا جفنة مملوءة طيباً، وغمسوا فيها أيديهم، ومسحوا بها الكعبة، تأكيداً للصلح، وأما الأحلاف: فهم بنو عبد الدار ومن تابعهم، وسموا بالأحلاف: لأنهم في الصلح المشار إليه أعلاه أخرجوا جفنة مملوءة دماً، فغمسوا فيها أيديهم، ومسحوا بها الكعبة، إمضاء للعهد الذي أبرموه مع بني عبد مناف، والمطيبون والأحلاف أبناء عمومة، فكلهم يرجعون بنسبهم إلى قصي بن كلاب، ينظر: السيرة: ١: ١٣٠ وما بعدها، ومعجم البلدان: ٥:١٨٧.

(٢) معجم البلدان: ٥:١٨٥.

(٣) الحَريرة: لحم يقطَّع صغيراً (قريشاً)، ويطبخ في ماء كثير، وعند نضجه يُذَر عليه الدقيق، فإذا لم يكن لحم فهي عصيدة، ينظر المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

وكانت قريش لا تُربِّع أسطح منازلها، ولا تعلِّيها، ابتعاداً عن التشبه بالكعبة المربعة بالشكل، كراهية مضاهاة بيت الله في شيء، احتراماً له وتقديساً، وخوفاً من عاقبة التطاول عليه، وظل الحال على ذلك حتى ربَّع حُميد بن زهير بيتاً له بمكة، فأثار دهشة القرشيين، واستغرابهم، وخوفهم عليه من سوء العاقبة، إلى درجة أن رُجَّازهم كانوا يرتجزون، والبيت يُبنَى:

اليوم يُبنى لحُميد بيتُه إمَّا حياتُه وإمَّا موتُه

فلما تمَّ البناء، ولم تنزل بحُميد عقوبة، تبعته قريش، فربَّعت منازلها[1].

وكانت قريش لا تُربِّع أسطح منازلها، ولا تعلِّيها، ابتعاداً عن التشبه بالكعبة المربعة بالشكل، كراهية مضاهاة بيت الله في شيء، احتراماً له وتقديساً، وخوفاً من عاقبة التطاول عليه

وأول من سنَّ بين العرب، قبل الإسلام، دية المقتول مائة من الإبل كان من قريش، وهو عبدالمطلب بن هاشم، فأخذت به قريش والعرب جميعاً، وأقره الإسلام، و أول من خلع نعليه عند دخول الكعبة في الجاهلية، الوليد بن المغيرة، فخلع الناس، وصارت سنة إلى اليوم في دخول المساجد، والأماكن المقدسة، وهو نفسه أول من قضى بقطع السارق، وبالقسامة[2]، في الجاهلية، فأخذ بها العرب، وأقرها الإسلام[3].

ومما تفرد به القرشيون: دار الندوة، التي شهُر أمرها بين العرب جميعاً،

(١) المفصل في تاريخ العرب: ٤: ٥١، وينظر: ديوان قيس بن الخطيم: ١٩٧.

(٢) القَسَامة: أن يوجد قتيل بين حيين لا يُعرف قاتله، فتُحمَّل ديته على الحيين بالتساوي، أو أن يُقْسِم خمسون من أولياء الدم على متَّهَم بعينه لإثبات حقهم، فإن رفضوا أقسم المتهم لتبرئة نفسه، ينظر: المفصل في تاريخ العرب: ٥: ٥٢٤.

(٣) ينظر: المعارف: ٥٥١ وما بعدها.

وهي منتدى بناه قصي بن كلاب لقريش، تنطلق منه لكل شؤون حياتها، فلا يُعقد لواء، ولا تتم مشورة، ولا تزوَّج امرأة، ولا يختَن صبي، إلّا فيها، وسموها دار الندوة[1]: لأنهم كانوا يتنادون فيها للخير والشر معاً، وهي مفخرة لهم، كما أنها تُعد - بلا ريب - مظهراً حضارياً آنذاك، لا يوجد شبيه له في العرب.

ومن تكاتف القرشيين، وتماسكهم، وتعاونهم: قبولهم للرِّفَادة، وهي خَراج في أموالهم فرضه عليهم جدهم قصي، لتوفير الطعام والشراب للحجاج أيام الموسم، ومع دار الندوة والرفادة هذه، صارت لقريش السقاية، والحجابة، واللواء[2]، فجمعوا المجد من كل أطرافه، وقد قال شاعرهم، الزبير بن عبدالمطلب، مفتخراً:

فلولا نحن لم يَلْبَس رجال ... ثيابَ أعِزَّة حتى يموتوا
ثيابهم سِمَال أو طُمَار ... بها وَدَكٌ كما دَسَم الحَمِيت

---

(١) ينظر: التاريخ القويم: ٢:٧٧ وما بعدها.

(٢) اللِّواء: الإجازة بالناس من عرفة، والدعاء بهم، ولعله سمي بذلك: لأن الذي يتقدم الناس ويدعو بهم يحمل لواء في يده، أو علامة دالة عليه، وكان أمره في قبيلة من جرهم اسمها: صُوفَة، وهم الذين يقول فيهم زهير بن أبي سلمى:

ولا يَرِيمُون في التعريف موقعهم ... حتى يُقال أجيزوا آل صفوانا

(ديوان زهير: ٦٠)

ثم غلبت خزاعة على جرهم فأخذته منهم، ثم انتزعته من خزاعة قبيلة بني عدوان بن عمرو، فصار إلى رجل منهم يُدعى: أبو سيَّارة، وهو الذي يقول فيه الراجز:

خَلُّوا السبيل عن أبي سيَّارة ... وعن مواليه بني فزارة
حتى يُجيز سالماً حماره ... مستقبل الكعبة يدعو جاره

(المصدر السابق)

وكانت صورة الإجازة: أن يتقدم أبو سيارة الناس على حماره، ثم يخطب فيهم قائلاً: «اللهم أصلح بين نسائنا، وعاد بين رعائنا، واجعل المال في سُمحائنا، وأوفوا بعهدكم، وأكرموا جاركم، وأقْروا ضيفكم، أشْرِق ثَبير كيما نُغير»، ثم ينْفُذ، ويتبعه الناس، وبقي اللواء في يد أبي سيارة حتى اغتصبه منه قصي، فصار له ولأولاده من بعده.. ينظر: ديوان زهير: ٦٠، ومعجم البلدان: ٥: ١٨٥.

ولكـــنَّا خُـــلقنا إذ خُـــلقنا لنا الحَبَرَات والمِسْك الفَتِيت[1]

وقال مطرود بن كعب الخزاعي في رثاء عبدالمطلب، مشيداً بقريش:

يـا أيـها الرجـل المـحوّل رحـلَه ألا نـــزلتَ بآل عـــبد مـــناف
هَـــبِلَتْك أمُّك لو نـــزلتَ عـليهمُ ضَـمِنوك مـن جـوع ومـن إقْـراف
الآخـــذون العـــهد مـن آفـاقها والراحـــلون لرحـــلة الإيـــلاف
والمـطعمون إذا الريـاح تَـنَاوَحت ورجـــال مكـة مُسْـنِتْون عِـجَاف
والمُـفْضِلون إذا الُـمحُول تـرادفت والقـــائلون هـــلمَّ للأضـــياف
والخـــالطون غـــنيهم بـــفقيرهم حـتى يكـون فـقيرُهُم كـالكافي[2]

ومن مآثر المكيين: كثرة آبار السَّقي التي احتفروها بمكة، وتنافُسهم في ذلك، وقد خلد الشعراء هذه المآثر في شعر كثير، نقف عند نماذج منه على النحو التالي:

ورد في المصادر: أن أول سقاية بمكة، كانت بئراً اسمها: (العَجُول)، احتفرها قصي بن كلاب، في دار أم هانىء بنت أبي طالب، وكان العرب إذا استقوا منها ارتجزوا مادحين قُصياً بقولهم:

نَـرْوي عـلى العَـجُول ثـم نـنطلق إن قُـصيّاً قـد وَفَّـى وقـد صـدق
بالشِّبْعِ للحاج وَرِيٍّ مُنْطَبِق[3]

وفي المعنى نفسه: قال شاعرهم حذيفة بن غانم، مفتخراً بمآثر القرشيين:

وسـاقِي الحـجيج ثـم للـخير هـاشم وعـبد مـناف ذلك السـيد الفـهري
طَـوَى زمـزما عـند المـقام فأصـبحت سـقايته فـخراً عـلى كـل ذي فـخر[4]

(١) المفصل في تاريخ العرب: ٩: ٧١٠.
(٢) المصدر السابق ٦: ٣٦٩.
(٣) السيرة: ١٤٧:١، وينظر: معجم البلدان: ٨٨:٤.
(٤) السيرة: ١٥١:١، وينظر: معجم البلدان: ١٤٩:٣.

ومما جاء في بئر اسمها: (الغَمْر)، وهي لبني سهم، قول شاعرهم:

نـحن حـفرنا الغَـمْر للـجميع تَـــثُجُّ مـاء أيَّـمَا ثَـجِيج[1]

وقالت سُبَيعة بنت عبد شمس مفتخرة ببئر احتفرها أهلُها، اسمها: (الطَّوِيُّ):

إن الطَّـــوِيَّ إذا ذكـرتم مـاءها صَوْبُ السحاب عذوبة وصـفاء[2]

وللشاعرة خالدة بنت هاشم بن عبد مناف شـعر في بـئر اسمـها: (سَـجْلَة)، احتفرها أبوها هاشم، ثم وهبها ابنه أسد لعَدِي بن نوفل، ولم يكن لأسد عـقب، منه قولها:

نـحن وهـبنا لعَـدِيّ سَـجْلَة تُروِي الحجيج زُغْلَة فزُغْلة[3]

وغيرها كثير.

وعلى هذا النحو عبّر شعراء مـاقبل الإسـلام عـن تـلك المكـانة العـظيمة لمكـة ولمـقدساتها، ولأهـلها، في قـلوب العـرب جمـيعاً، وإن مـا أوردنـاه في هذا العجالة لا يعدو أن يكون أمثلة مختارة من شعر كثير قيل في الموضوع، وهـو في جملته واضح الدلالة على أن مكة المكرمة كـانت قـبل الإسـلام محـوراً أدبـياً مهماً، يـلتقي عـنده الشـعراء، والأدبـاء عـموماً، في أوقـات الشـدة والرخـاء، واليسر والعسر، على حد سواء، كما يبدو هذا الشعر أيضاً معبراً عما يكنه العرب لمكة والأماكن المقدسة، وساكنيها، من تقدير واحترام يصل إلى درجة التقديس والعبادة.

(١) السيرة: ١٤٨:١، وينظر: معجم البلدان: ٢١١:٤.
(٢) المصدر السابق، وينظر: معجم البلدان ٤: ٥١.
(٣) المصدر السابق، وينظر: معجم البلدان ٤: ١٩٣.

الخاتمة:

وختامُ هذا البحث: استخلاص لأهم النتائج التي توصل إليها في نقاط مختصرة، على النحو التالي:

١ - إجماع العرب قبل الإسلام على احترام مكة، وكافة المقدسات بها.

٢ - لمكة هيبة عظيمة في قلوب الجبابرة والعصاة والمردة ومن في حكمهم.

٣ - كثرة الحِلف بالله والبيت والكعبة وما شابهها من المقدسات.

٤ - الاحتماء بمكة عند الشدائد، وفي حالات الخوف، وما شابه ذلك.

٥ - لا مكان في مكة لباغ أو سيء النية نحو مكة ومقدساتها.

٦ - لقريش مكانة رفيعة عند العرب بصفة عامة.

٧ - تميز القرشيون بكثير من الذكاء والحكمة والعقل والمروءة والكرم، مما جعلهم في مكان الصدارة من العرب جميعاً، يلجأون إليهم كلما حزب بهم أمر، أو حدث بينهم شقاق، أو طلبوا الشهرة، وما شابه ذلك من أمور.

٨ - مكة سوق تجارية مشهورة، والمكيون أسياد هذا السوق.

٩ - كثرة آبار السَّقي بمكة القديمة، وتنافس المكيين في إقامتها، وإشاعتها للجميع، وتفاخرهم بذلك.

١٠ - مكة محور مهم للشعر والأدب عموماً منذ القدم.